انهيار السد

الشيخ محمد صالح المنجد

الجمعة 1431/6/7هـ

عناصر الموضوع:

1. قصة سبأ في القرآن.
2. أسباب زوال النعم.
3. الربا والكوارث الاقتصادية.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

قصة سبأ في القرآن

فإن الله -سبحانه وتعالى- قد قص علينا القصص لتكون عبرة لنا، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} (111) سورة يوسف، {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} (3) سورة يوسف، وهذا القرآن فيه من قصص السابقين ما هو مجال للتدبر والعبرة، وإعمال الفكر وأخذ الفكرة، وامتثالاً لقول الله تعالى: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (176) سورة الأعراف، نقص في هذه الخطبة قصةً من كتاب الله -عز وجل-، إنها: قصة سبأ، فبعد أن ذكر الله -تعالى- قصة آل داود في شكرهم لله، أتبع ذلك بحال من لم يشكر الله، والشكران سبيل المؤمنين، ومجلبةٌ للنعم، والكفران سبيل الجاحدين، مجلبةٌ للنقم، {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} (15-17) سورة سبأ، وسبأ قبيلة من العرب، سميت باسم أبيها الذي تناسلت منه، وقد روى فروة بن مسيك أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرنا عن سبأ ما هو أرض أم امرأة؟، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن ستة، (أي سكنوا اليمن)، وتشاءم أربعة (أي سكنوا الشام))). رواه أبو داود(3988) وهو حديث صحيح، فلما أرسل الله عليهم سيل العرم أقام من أقام منهم وبقي، ونزح من نزح منهم وترك إلى الشام، كانت مدينتهم مأرب بين صنعاء وحضرموت، وكانت سبأ

مملكةً عظيمةً في سلطانها، مهابةً في جانبها، قد حكى الله –تعالى– عنهم أنهم: {أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ} (33) سورة النمل، كانوا في نعمة وغبطة من بلادهم، واتساع أرزاقهم، وطيب عيشهم، وكانت زروعهم من الكثرة والخصوبة بحيث أن المرأة إذا دخلت وعلى رأسها المكتل بين الأشجار يمتلئ مكتلها ثماراً مما يتساقط من غير عناء ولا كلفة، كما قال قتادة –رحمه الله–، فبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، وأن يشكروه على نعمته، وأن يوحدوه ويعبدوه، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد، كما قال ابن كثير –رحمه الله–، {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ}، في بلدهم مأرب اليمنية {آيَةٌ} علامةٌ ظاهرةٌ على العطاء والترفيه، ثم المنع والتخريب، {آيَةٌ} ظاهرة، وعلامة دالة على قدرة الله –عز وجل–، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} (64) سورة الواقعة، ولكن الله –عز وجل– أخرج من الأرض من هذا التراب، من هذا الخشب، ومن سيقان الأشجار هذه الثمار على اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها، إنه القدير –سبحانه وتعالى– {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ}، ليس بعيداً عنهم، لا يحتاجون إلى وسائل نقل؛ لجلب المحاصيل من مكان بعيد، {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ} ليس المقصود بستانين، وإنما جماعات البساتين عن يمين الوادي وشماله، يشكل البساتين في اليمين جنة من تشابكها وكثرة شجرها، كأنها جنة واحدة كبيرة، جماعتان من البساتين عن يمين بلدهم وواديهم وشماله، وكان في ناحيتهم وادٍ عظيمٌ بين جبلين، وكانت جنبتا الوادي فواكه وزروع، وكانت كل واحدة من جماعة البساتين في تضامّها وتقاربها كأنها جنة، كما تكون بساتين البلاد العامرة، جنتان، هذه الكلمة توحي بما منحه الله هؤلاء القوم من الغنى، ووفرة الثمار، كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار، تسر الناظرين، وكان من أمرهم أن الماء يأتيهم بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم وبنّاؤهم المهرة، وكانوا أهل خبرة في هندسة السدود، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء، وصار على حافات الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، وكانت الثمار تتساقط من الأشجار دون حاجة إلى قُطّاف؛ لكثرتها، ونضوجها، واستوائها، فهذا سد مأرب العظيم بما علمهم الله –عز وجل– من اتخاذه وهندسته، وهذه الأمطار، وهذه المياه، وهذه الزروع والثمار والأشجار، نِعمٌ لاستقرار العباد، وآية من الله –عز وجل–، وأمنٌ وهو أساس العمران، وتمكنٌ من المياه وهي أساس الحياة، {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} على ما رزقكم من النعمة، واعملوا بطاعته، واشكروا له، وحدوه على ما رزقكم، واعبدوه لا شريك له، {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} كَرَمَ تلك الجنان التي أعطاكم، وما فيها من الخير الواسع، والأكل من رزق الله –

عز وجل-، وهو المحسن الكريم، نعمة أخرج لكم ما تشتهون، ونسب الرزق إلى الربوبية، فقال: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ}؛ لأن الرزق من أفعال الله -عز وجل-، وتوحيد الله بأفعاله: من الإحياء، والإماتة، وإنزال والمطر، والرزق، ونحو ذلك، توحيد الربوبية، وعبادته وحده لا شريك له توحيد الألوهية، فذكر هذا مقدمة لهذا، وعلل هذا بهذا، فما دام أنه رب كـريم رزق، فهـو المسـتحق للحمد، والشكر، والعبادة وحده لا شريك له، كانت الآية العظيمة التي جعلها الله -عز وجل- في هؤلاء القوم ينبغي أن تقابل بشكر عظيم، {وَاشْكُرُوا لَهُ}، خصوه بالشكر، عطف الشكر على الأكل؛ لأن شكر الله -تعالى- سبب لاستمرار الرزق والزيادة منه، ثم بين أيضاً مـن موجبـات الشكر (بالإضافة إلى الأكل والرزق) {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ}، قال المفسرون: كريمة التربة، حسنة الهـواء، سليمة من الهوام، لطيفة، جميلة، مباركة، معتدلة، لا حارة، ولا باردة، ولا جافة، ولا رطبة، لـيس فيها ذباب، ولا بعوض، ولا براغيث؛ لاعتدال هوائها، وصحة مزاجها، وعنايـة الله -تعـالى- بأهلها، كانت أخصب البلاد، ليست بسبخة، بل طيبة؛ لحصول الرزق الرغيد فيها، كانت مـن أخصب أرض اليمن وأثراها، وأعذبها وأكثرها جناناً، يسير الراكب من أولها إلى آخرها لا تواجهه الشمس، ولا يفارق ظلها؛ لاستتار الأرض بتلك الأشجار، وإحاطتها بها، فكان أهلها في أطيـب عيش وأرفعه، وأهنأ حال وأرغده، هذا الصفاء في الفضاء، والطيب في الهواء، والتدفق في المـاء، وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة، فما الذي يعوق عن الشكر؟ وما الذي يبقـى مطلوبـاً غـير العبادة؟، {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}، لمن شكره وعبده، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ ومـاذا قـال القوم؟ وما هو الموقف الذي وقفوه؟ وآل حالهم بعد النعمة إلى البطر والطغيان، قال الله -تعالى-: {فَأَعْرَضُوا} عن توحيد الله، {فَأَعْرَضُوا} عن عبادة الله، {فَأَعْرَضُوا} عن شكر الله، أعرضوا عن الحق، أعرضوا عن اتباع الأنبياء، ووقعوا في عبادة الكواكب، كما قال هدهد سليمان: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} (22- 24) سورة النمل، فماذا فعل الله بهم لما أعرضوا؟ وبماذا قابلهم تعالى لما قـابلوه بالكفران؟ قال الله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} هذا إرسال عذاب، العرم: من العرامة، وهـي الشدة والقوة، مطرٌ شديدٌ، وسيل لا يطاق دفعه، والعرم هو: السيل الجارف، الشديد، الصعب، الغالب، الكثير، الشرس، المتناهي في الأذى، لا يرده شيء، ولا تمنعه حيلة، ولا يقوى عليه سـد، بل يذهب كل مذهب، بل كان الله قد وهبهم القدرة؛ لبناء السدود، يتيهون بذلك على النـاس، يحفظ الله به الأمطار، ويمدهم بما يحتاجونه طيلة العام، لكن هذا السد الذي تفاخروا بـه، وهـذا المعلم من معالم القوة التي كانت عندهم، وهذا الذي افتخروا به على من حـولهم، هـذا السـد

العجيب، وهذه المنشأة الضخمة، وهذه التحفة الهندسية كانت سبباً في إهلاكهم، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} لما أعرضوا عن الله، ولما كفروا بنعمته، وظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم، أتاهم سيل العرم؛ عقاباً من جنس العمل، فسلط الله عليهم ما سلط، قال ابن عباس: لما أراد الله –عز وجل– عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: الجرذ نقبته، فخرب السد، وانهال عليهم التيار، واجتاح الأراضي، وأتلف الجنان والبساتين والزروع، ودمر البيوت والمنازل، وأغرق بلادهم، وأفسد عمرانهم، ويتّم أطفالهم، ورمّل نساءهم، ونزح من نزح منهم، فأُجلوا عن تلك الديار، ومُزقوا كل ممزق، هل يكون سبب الخير سبباً للعذاب؟ نعم، فقد عاقب الله –تعالى– قوم سبأ بالنعمة التي كانت لهم، ولما كان هذا السد سبب الخير المتدفق عليهم، صار بالكفران سبباً لدمارهم وتشردهم وتمزيقهم في البلاد، آية من الله –عز وجل–، وحكمة بالغة، وهكذا يرسل الله شيئاً يكون رحمةً لقوم، وعذاباً على آخرين، وابتلاء لقوم وإنذاراً وتخويفاً، وهو للآخرين أيضاً تمكين وقوة، ما هي العاقبة للإعراض؟ بعد النعمة كان لديهم الأمن في الأوطان، والأرزاق في الديار، والصحة في الأبدان، فتبدلت الأمور، وتغيرت الأحوال، فآلت إلى ماذا؟ قال الله: {وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ}، ثمرٍ مرٍ بشعٍ لا يؤكل، وقيل: الخمط كل شجر له شوك، وثمرته كريهة الطعم مرة، {وَأَثْلٍ} شجر البادية الذي لا ثمر له، أو ثمرٌ قليل الغناء، {وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}، هذا السدر أحسن ما بقي، ولذلك ما أبقى لهم منه إلا القليل، {وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}، وماذا يكون ثمر السدر بالنسبة لما كان من قبل، قال قتادة: كان شجر القوم من خير الشجر، فبدّله الله من شر الشجر بأعمالهم، بدلهم الله بالجنان اليانعة التي كانوا يعيشون فيها أشجاراً أخرى ليس لها ثمار، أو لها ثمار ليست بطيبة ولا لذيذة، حلت هذه الثمار المرة التي لا تؤكل بدل تلك الثمار النضيحة التي لها طعم طيب، والتي تصح منها الأبدان، {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا}، {ذَلِكَ} أي: العقاب {جَزَيْنَاهُم} نحن بعظمتنا وقوتنا، {جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا}، وغطوا الحق، تبديل النعم بالنقم هو جزاء من لا يشكر، التبديل بعد المناظر الحسنة، والأنهار الجارية عندما تؤول القضية إلى ما آلت إليه من هذه الأجواء والأشجار، وهذه النتيجة عاقبة المعصية التي هي وخيمة، والتبعة التي هي صعبة، النفس المكذبة، النفس الجاحدة، النفس الكفورة، ولما كان من العادة المستقرة: المبالغة في جزاء من أساء بعد الإحسان: أجرى الله –تعالى– الأمر على هذا العرف، فقال: {وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}، أي: لا نجازي إلا الكفور، لا نعاقب بمثل هذه العقوبة، ونسلب مثل هذه النعمة إلا الكفور المعاند المبالغ في الكفر، أما المؤمن فنكفر عنه ذنوبه بطاعته، ونزيد له في رزقه بشكرانه، إنه تهديدٌ يصدع القلوب، ويردع النفوس، ويدع الأعناق خاضعةً والرؤوس، وهذا الجحود والبطر هو السبب للخراب والدمار، والرجل

يُحرم الرزق بالذنب يصيبه، وكذلك المجتمع إذا أعرض عن ذكر الله –عز وجل–، ومن الناس من يكون في رغد الحال، واتصال من النعم، فيرتكب زلة، أو يسيء، أو يتبع شهوة، فيتغير عليه الحال، فلا وقت ولا حال يظلم عليه النهار بعد أن كان ليله مضيئاً، وصلت زيادة نعمة الله عند أولئك القوم أن عمرانهم كان متصلاً بينهم، وبين القرى المباركة: اليمن مأرب مكة الشام، فيخرج المسافر من قرية ويدخل في أخرى في بلاد آمنة وقرى متواصلة، قال الله –تعالى–: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً} (18) سورة سبأ، القرى التي باركنا فيها بالتوسعة على أهلها بالنعم، والمياه، والزروع، والثمار، وحسن العمران هي قرى الشام كما قال مجاهد، أو صنعاء كما قال سعيد بن جبير ومالك، بينهما قرى ظاهرة: متواصلة يُرى بعضها من بعض؛ لتقاربها في ظاهر العين في الرؤية للناظرين، أو {ظَاهِرَةً} للمسافرين: بيّنة على الطريق، ليست بعيدة عن مسالك المسافرين، ولا تخفى على السائرين، {ظَاهِرَةً} قيل أيضاً: بكثرة أشجارها وثمارها، {وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ}، جعلنا بين قراها مقادير متساوية، فمن سار من قرية صباحاً، وصل إلى أخرى ظهراً، وقَالَ من القيلولة هناك، ومن سار بعد الظهر، وصل عند الغروب، وبالتالي لا يحتاج المسافر إلى زاد، ولا مبيت في أرض خالية، كأنه لم يخرج من قريته، فكانوا يسافرون من اليمن إلى بيت المقدس بلا زاد ولا ماء، فحيث ما نزلوا، وجدوا الخير والرخاء، والزاد والنماء، هذا كان من النعمة {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ}، سيروا إن شئتم ليلاً، أو نهاراً، ليالي وأياماً، فإن الأمن لا يختلف عليكم، لا تخافون عدواً، ولا جوعاً ولا عطشاً، وإن امتدت مدة السفر، كانوا في أمان في الحضر، وكذلك في السفر، كانوا في رغد من العيش في بلدهم، وكذلك إذا سافروا من اليمن إلى الشام، {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا}، قدم الليالي على الأيام، والظلام على الضوء والنهار؛ لأن مقام الامتنان بالأمن في الليل أكثر؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لما يكون في الليل من القطّاع والسباع، تأمين طرق السفر، تيسير المواصلات، تقريب البلدان يُسهل في تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق، فأنعم الله عليهم بنعم في الحضر وفي السفر، ولكن غلبت عليهم الشقوة، فلم يتعظوا، بل دعاهم داعي الحمق، والجهل، والكفران، إلى أن بدلوا نعمة الله كفراً، من بطر هؤلاء القوم أنهم قالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، يا ليتها كانت بعيدة، فنسير على نجائبنا، ونربح ونفاخر، هل سمعت يا عبد الله بمن يمل العافية، ويسأم من توفر كل شيء؟، ثم يسأل ويدعو أن يكون هنالك تعب، ما هذا البطر الذي يؤدي إلى مثل هذا السؤال؟ ملّوا من النعمة، وبالرغم مما جعل الله في طريق سفرهم من القرى الظاهرة، والأمن والزاد، يقولون: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، فأحبوا المفاوز التي يحتاجون فيها إلى الزاد والرواحل، بنو إسرائيل كانوا في المن والسلوى، لكن ملّوا من النعم، فماذا طلبوا؟ {قِثَّآئِهَا

وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}، تريدون أن يحل هذا بدلاً من ذاك؟! عجباً! وهذا التشابه في حال قوم سبأ، وحال بني إسرائيل، فسبأ لا يريدون سفرات قصيرة، في منازل قريبة، ومحطات آمنة، وطرق فيها زاد وفير، كأن هذا عندهم لا يُشبع هواية الرحلات، ولذة المغامرة، فمن البطر أهم طلبوا ما طلبوا {بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، وهكذا الفطرة إذا انتكست، والمزاج إذا انحرف يستبدل الإنسان القبيح بدل الحسن، وقد يكون هذا في الدين والأخلاق، وكذلك في المطعومات، والماديات المحسوسة، فيريدون الشرك بدل التوحيد، والخيانة بد الأمانة، والفجور بدل العفة، وهكذا الرزق الخبيث بدلاً من الرزق الطيب، والحرام بدلاً من الحلال، مع قدرتهم على الحلال، لكن كأنهم ملّوا من الحلال، فيريدون حراماً، وهكذا الغرب لما سأم بعضهم الحلال اتجهوا إلى الحرام، ثم الاغتصاب، ثم اغتصاب العجائز، وبعض المشركين يرى فيه علاجاً من الأمراض، يرون العلاج من الأمراض في اغتصاب العجائز، {وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ}، سبأ بكفرهم، {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}، علكة في ألسن وأفواه الناس، {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} تحولت الحضارة وتحولت القوة والعيش الرغيد إلى أحاديث الأماكن الآمنة والقرى المتقاربة صارت أحاديث، قصص، أخبار، يتحدث بها السمّار، صارت أثراً بعد عين، يُروى وليس بموجود، كان في قديم الزمان، {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}، كان في قديم الزمان، تُروى ويتعجب الناس من تلك الأحوال ومن مكر الله بهؤلاء ومن العبرة، {وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}، كما يمزق الثوب، ففرق الله شملهم بعد الاجتماع والألفة، فصاروا في البلاد شذر مذر، وأصبحوا يقولون أي العرب في أمثالهم: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ، فلحق من لحق منهم بالشام، وذهب من ذهب منهم إلى يثرب، واتجه من اتجه منهم إلى بقية سهول تهامة، ما أهون الخلق على الله إذا عصوه، اللهم إنا نسألك الأمن والإيمان، أغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، اللهم إنا نسألك عيشاً رغيداً، ورزقاً وفيراً، وصحة في جسد، اللهم إنا نسألك الأمن والإيمان، وأن ترزقنا طاعتك يا رحمن، أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الواحد الديّان، أشهد أن لا إله إلا هو الرحيم الرحمن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير ولد عدنان، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه أولي الهدى والعرفان، وسلم تسليماً كثيراً.

أسباب زوال النعم

عباد الله: لقد حذرنا الله –تعالى– من الكفر والطغيان، واستخدام نعمه في الفساد، وأن هذا من أسباب الزوال، لقد كان مسير صاحب الجنتين رغم نعمة الله: {آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا} (33) سورة الكهف، لكن مسيرة هذا الرجل كانت كفراً وبطراً، واغتراراً وتكبراً، وكانت العاقبة: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} (42) سورة الكهف، وهكذا قوم فرعون لما حاربوا رسول الله، وطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، أغرقهم الله، قال –عز وجل–: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} (57،58)سورة الشعراء، {وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ }(26،27) سورة الدخان، وهذه النعمَة، والنعِمة أورثها الله قوماً آخرين، {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (131)سورة الشعراء، يقول هود لقومه: { وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } (131 – 134)سورة الشعراء، زالت ذهبت، وصارت الأشجار كأعجاز نخل منقعر، ليس بين أحد من الخلق وبين الله نسب، والله لا يحابي، وله سنة إذا حصل الكفر والطغيان حل الدمار والخسران، ولا فضل لنا على سبأ، ولا لسبأ علينا، الإيمان والتقوى هو المعيار، ومن سنن الله –تعالى– أنه ما من أمة تكفر بالله وتستخدم نعمه في الفساد، إلا ويُنزل الله فيهم عذابا، ويسلبهم تلك النعمة ويوقع بهم الهلاك، {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} (112) سورة النحل، {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (19) سورة سبأ، جاءت هذه تعقيباً على ما سبق في القصة، فيما حل بهؤلاء من النقمة وتبديل النعمة عبرة لكل عبد صبّار على المصائب، صبّار عن المعاصي لا يفعلها، صبّار كثير الصبر، دائمٌ مستمرٌ عليه، توطين النفس على طاعة الله، وكفها عن محارم الله، وحبسها عن التسخط على قضاء الله وقدره، صبّار شكور للنعم، صبّار صيغة مبالغة وشكور صيغة مبالغة، إذاً من الذي يستفيد ويعتبر؟ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ} كثير الصبر {شَكُورٍ}كثير الشكران مداوم عليه، وما أكثر ما يظلم الناس، ويجحدون، ويكفرون، ولا يصبرون.

شكر النعم بتوحيد الله، أما الوقوع في الشرك وتبديل الدين، كما يراد أن يحدث اليوم، تحريف الدين، فلا يكون إلا سبباً للخسران، شكران النعم بالعفة، أما ما يريده أعداؤنا من نشر الفجور بيننا، وما يتبعهم على ذلك منافقون في نشر الانحلال، وفتح الأبواب له، فإنه لن يأتي –والله– إلا بالخراب، شكر النعم بتطهير الأموال من الحرام، وتنقية المكاسب من الخبائث، شكر النعم بحفظ

الجوارح أن تعمل بمعصية الله، بدأت القصة: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}، وانتهت القصة بقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ}؛ لأنهم كانوا في بداية القصة منعمين، الكلمة واحدة، والعيش متفق، وكأنهم رجلٌ واحد، في آخر القصة لما مزقوا كل ممزق تحولت القبيلة إلى قبائل، والجماعة إلى شذر مذر، صارت آيات، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ}، هذا الانتقام من الله –سبحانه وتعالى– عام لكل من سار على هذا المنوال، والإيمان ضمان لبقاء النعم، وما يحدث من الكفران اليوم في الأرض لا بد أن يكون له ثمن يدفعه أصحابه، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} (41) سورة الروم، فبدأ الفساد يدب في الثمار، والأجواء، والبيئات، والتلوث، والغبار، بدأ مفعول المعاصي ينتشر في الأرض انتشار النار في الهشيم، في هذا الفساد الذي هو سبب الأمراض والويلات، {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} (62) سورة النساء والأحوال المكروه من الأوجاع، والأسقام، والقحط، والغلاء، والغرق، والصواعق، والمصائب، بما كسبت أيدي الناس، دع عنك الذين يقولون لا علاقة بين الكوارث الطبيعية والمعاصي، فإن الله قال: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} (30) سورة الشورى، فالرابط واضح، وقال: {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، والباء باء السببية، الارتباط واضح، والله –عز وجل– يعفو، ويؤخر، ويمهل، ولا يعم، قال ابن مسعود: لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين، لأصاب العذاب جميع الخلق، حتى الجعلان في جحورها، ولأمسك الأمطار من السماء، والنبات من الأرض، فماتت الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل، كما قال: {وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (30) سورة الشورى، {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} (45) سورة فاطر.

الربا والكوارث الاقتصادية

عباد الله: قبل أن يشرع الجهاد في سبيل الله في عهد موسى –عليه السلام– ومن بعده من الأنبياء إلى نبينا –صلى الله عليه وسلم– كان الله –عز وجل– ينصر المؤمنين ويهلك الكافرين بآيات كونية، فيرسل على قوم ريحاً، وعلى آخرين صيحة، وعلى مجتمع ثالث قاصفاً وصواعق تهلكهم وتحرقهم، عذاب الظلة، وكذلك صيحة تقطع نياط القلوب في أجسادها، وطوفان، ونحو ذلك من الآيات الكونية، وإذا أصرّ أهل البغي والكفر في العالم على الإفساد في الأرض، وإذلال الخلق، وظلم الناس، ونشر الكفر في العالم، فإن الله سيعود لتسليط جنوده عليهم، ولو لم يكن في الأمة من يقوم بجهادهم، فعند الله جنود، وعند الله آيات يسلطها على هؤلاء، يأتيهم ببراكين، بزلازل، بأعاصير، بأوبئة، بكوارث، وأشياء أيضاً مما عملته أيديهم، أزمات مالية، حروب، فتنتشر الفوضى في العالم، وتحل النكبات، ويسيري الخراب، وبما أن أقطاب العالم اليوم قد أصروا على محاربة شرع

الله بالربا، فلا بد أن يحاربهم الله؛ لأنه قال في كتابه: {فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ} (279) سورة البقرة، {فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ}، وهذه الحرب من الله ما يسلطه عليهم من الانهيارات المالية، مَثَل من الأمثلة، كوارث اقتصادية، إفلاسات على مستوى الدول، دولة تفلس، ثم بعد ذلك ماذا تكون النتائج؟ انهيار عملات، انهيار الأسهم وهي أسعار الشركات وعماد الاقتصاد، وبعد ذلك كوارث متتابعة في عالم الديون الربوية، حرب من الله –عز وجل–، يريدون النجاة منها ولكن الذي يقع في ورطة لا يستطيع الخروج منها، يفر من زاوية إلى زاوية، ومن مأزق إلى مأزق، {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ} (26) سورة النحل، وقد بدأت الويلات في عوالم الربا في العالم، وهؤلاء أقوام احتلوا بلدان، وقتلوا أطفال، ورملوا نساء، وسرقوا خيرات، ونهبوا، وحاربوا الدين، وأرادوا تغيير الشريعة، وإطفاء نور الله، ومحاصرة أهل الإيمان، ودعم أهل النفاق والكفران والطغيان، وهؤلاء قد كثر فسادهم وعم، فقد آن الأوان ليأخذهم الله –تعالى–، فلا تعجب يا عبد الله إذا رأيتهم ينتقلون من كارثة إلى كارثة، فهذه نتائج متوقعة للظلم.

اللهم إنا نسألك الخلاص من الفتن، اللهم نجنا في الدنيا وفي الآخرة يا رب العالمين، اللهم اجعلنا لك ذاكرين، لك شاكرين، لك تائبين، إليك أواهين منيبين، أعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وعافنا واعف عنا، وكن لنا ولا تكن علينا، اللهم رحمتك نرجو، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ونجنا من القوم الظالمين، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، واكتبنا من أهل الفردوس الأعلى يا أرحم الراحمين، وأعتق رقابنا من النار يا غفار، اللهم تب علينا، وآتنا سؤلنا، وقنا شر أنفسنا، اللهم أصلح نياتنا وذريتنا، وألف بين قلوبنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وأدخلنا دار السلام، أحينا مؤمنين وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، آمنا في أوطاننا، وأصلح ذات بيننا، وولاة أمرنا، وارزقنا الاستمساك بالعروة الوثقى، اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة، وحسن العاقبة، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وقنا خزي الدنيا وعذاب الآخرة، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.